هل يمكن اعتبار الهجاء نوعا من التنمر باعتبار صوره المتعددة؟

بداية إن فكرة الهِجاء في الموروث العربي تقوم على الانتقام الشخصي وعدم القدرة على المجابهة في ميدان الفروسية أو يمكن أن نقول عنها أنها حالة من النَيْل من الآخر بسيف الكلمة واللفظ، وسواء أكان هذا الهجاء مقذعًا وموغلاً في الفُحشِ أو مجرد سرد للمثالب فقط، فقد وُجِد في تراثنا بصورة كبيرة، ولقد جاء الإسلام ومنع ذلك بل وحرمه – أحيانا – إلا في مواضع بيّنها رسول الله ﷺ ، منها: عندما قال عليه الصلاة والسلام لـ حسان بن ثابت رضي الله عنه : "اهْجُهُمْ – أوْ: هَاجِهِمْ- وجِبْرِيلُ معكَ" (متفق عليه).

وفي القرآن الكريم ما يؤكد المسار المعادي للتنابذ بالألقاب ورفض مسيرة الهجاء، قال تعالى: { يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسى أنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنهُمْ ولا نِساءٌ مِن نِساءٍ عَسى أنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنهُنَّ} [الحجرات:11]

وقوله تعالى : { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ } [الحجرات: 13]

وقول النبي (ﷺ): "لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. وعندما عَيّر أبو ذر الغفاري عبدالله بن مسعود بقوله " يابن السوداء "، قال له رسول الله (ﷺ): " إنك امرؤ فيك جاهليه "، أي مازال فيك من موروث الجاهلية.

ثم عاود الهجاء البروز من جديد في العصر الأموي من خلال شعراء النقائض وغيرهم، واتخذ أساليبًا وأنماطًا عديدة، تبعًا لأهداف سياسية وحِزْبيَّة، وكان ضمن هؤلاء الشاعر "دعبل الخزاعي " المعروف بقصائده المقزعة في هذا الصدد.

ما يعنينا الآن هو أن الهجاء الذي نفتخر به ونعُدّه من أغراض الشعر العربي الجاهلي والعصور التالية له؛ هل يمكننا أن نعتبره فيما بعد نوعًا من التنمر على الآخرين؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل لنا أن نتبرأ منه أم نعيد تقييمه من جديد وفق سياقات معرفية وثقافية معينة؟

ربما تكون مسألة التنمر من مسائل علم النفس؛ لكن التقاطعات البيْنيّة بين العلوم تجعلنا نناقشها من منظور أدبي، فإذا كان التنمر هو الامتعاض وإظهار الانتقاص من شخص سواء على المستوى الحسي أو المعنوي، وهذا بخلاف التوصيف، فإنه مرفوض وغير مقبول بأي حال من الأحوال .

ومن ذلك فإن فكرة التنمر تتلاقى مع فكرة الهجاء وتتقاطع معها في عديد من الجوانب والمسارات، فكل منهما قائم على النَيْل من الآخر ولو بقدر يسير، وإن كان بمجرد النظرات، فما بالُنا بالهجاء الذي ينال من كبرياء الخِصْم ومكانته.